مقدمة

"المشاهد والآثار"

كان حلم العلامة المهندس وصفي زكريا أن يضع كتاباً يشبه "الكتاب الأزرق" Blue Book المخصص للسياح يبين مؤلفه فيه الطرق والبلدات والمسافات مع شرح مفصل لكل مدينة أو بلدة أو قرية عن تاريخها وأحوال سكانها ومعالمها الأثرية ووصف تلك المعالم. وقد حاول الحصول على إذن ورخصة لترجمة الكتاب الأزرق هذا إلا أن مساعيه لم تكلل بالنجاح. ونظراً لأن رغبته كانت قوية لدرجة لم يكن ليقبل بالتنازل عنها أو تأجيلها، لذلك عزم على وضع الكتاب بنفسه ناهجاً نفس المنهج العلمي المتبع بالكتاب الأزرق وغيره من "الأدلة السياحية" وكان لابد أن يدخل مادته العلمية ونتاج بحثه التاريخي والأثري والسكاني (الانثروبولوجي) واعتمد إضافة على المصادر الأجنبية التي تيسرت له اعتمد على المصادر العربية وقارن بين المصدرين.

كما قام خلافاً للكتاب الأزرق الذي وضع حينها منذ نحو عشر سنوات. قام بتحديث المعلومات حتى وقته. وأدخل في كتابه أقوال السكان الذين كانوا موضع اهتمامه وكانت أقوالهم مهما كانت ومهما بلغ مقدار صحتها موضع تفحُصه وتدقيقه وبحثه العلمي. فأشار إلى تلك المصادر في كتابه وأشار إلى الخلافات بينها ونقد أقوال العارفين بتلك البقاع.

جاء كتاب المشاهد والآثار معتمداً على منهجية من سبقه من كتب الأدلة السياحية فكأن المؤلف وصفي زكريا في رحلة علمية (وربما عمل تلك الرحلة عدة مرات أثناء كتابة مؤلفه) فأخذ في وصف الاحتمالات والطرق المختلفة للوصول إلى كل ضيعة على الطريق، وحدد المسافات بالكيلومترات بين الضيع والقرى. ووصف الجو والطقس في مختلف فصول السنة ووصف كما قلنا بيوت القرية ومافيها من آثار ومشاهد ومساجد وكنائس وأبنية حكومية أو خاصة ومافيها من مدارس

ووصف حالة الناس ومتوسط عيشهم والحالة الثقافية وحركة العمران والتمدن والثقافة والعادات والتقاليد والحالة التعليمية.

وكان بذلك قد وضع كتاباً تفوق فيه على (الكتاب الأزرق) وخرج فيه عن المعهود مما يذكر في كتب الأدلة السياحية ليكون كتاباً منفرداً شاملاً جامعاً مختصراً مفيداً.

وقد قصد في توجيه كتابه لا إلى السائح فقط بل إلى كل من له حاجة في التعرف على القرى والبلدات من سياح وموظفين وعسكريين ورجال علم وثقافة ومعلمين وسواهم. وقد جاء في مقدمة كتابه عن هذا الموضوع ما يلي :

أطلق وصفي زكريا تلك التسمية "المشاهد والآثار في بلاد الشام" على مؤلفه الذي وجدته ضمن آلاف الأوراق المبعثرة المختلطة التي استلمتها من أسرته الميمونة التي عهدت إلى بموضوع تراثه وإعادة نشر كتبه فحاولت بكل جهد وإخلاص وأمانة أن أجمع جهد إنسان باحث عالم مجتهد فيما حاول أن يكتب وفيما حاول أن يقدم للقارئ العربي عموماً والسوري خصوصاً. وحاولت أن أعيد تشكيل وجمع شتات مختلف الأوراق ونتف الأوراق بما حوته من كتابات لمختلف المواضيع ولمختلف مشاريع الكتب ولأستخلص مما كتب وشطب وحتى بين السطور ولأتمم ما ترك من فراغات معتمداً على نفس مصادره مجتهداً فيما دون ذلك ليكون الكتاب الذي أراده على أحسن حال وأكمل وجه بقدر جهدي وامكاناتي ووقتي وعسى أن يكون جهدي هذا ملموساً وأن يكون لما فيه من خير مشكوراً ولما فيه من نقص أو غموض معذوراً. ولكن الدافع تخليد ذكرى شخصية أحببتها دون معرفة مباشرة ولكنها معرفة متابعة ودراسة لجهد إنسان مخلص في محبته ودأبه ومحاولاته.

حاول العلامة المهندس وصفي زكريا نشر كتبه تباعاً فطبع كتاب عشائر الشام بجهود كبيرة ونضال مرير. ثم نشر الريف السوري الجزء الثاني أيضاً بمساعدة صديق وتأخر صدور الجزء الأول لأن صديقاً آخر خرج عن الاتفاق الثلاثي بين الصديقين وبينه لطبع الجزئين معاً.

ونشر في حياته أيضاً كتابه المحاصيل الحقلية والمحاصيل الزراعية بجزئين كما نشر الدروس الزراعية بأربعة أجزاء ونشر العديد من المقالات في مختلف

الأبحاث التاريخية والأثرية عن مختلف الأقطار العربية وعن عشائر الشام بشكل خاص أيضاً.

وترك الكثير من الأوراق المبعثرة التي استطعت بتفهم طريقته العلمية في البحث والكتابة وطريقة تفكيره وخطله في وضع الكتاب فكان أن استطعت جمع عدة كتب له من آلاف الأوراق المبعثرة منها:

١- دمشق في كتابات وصفي زكريا ونشرته بدمشق.

٢- رحلتي إلى اليمن التي تمت عام ١٩٣٦ ونشرته بدمشق.

٣- حيوانات وطيور بلاد الشام التي مات أثناء وضعه اللمسات الأخيرة للكتاب.

والآن نقوم لكتابه الجديد وهو "المشاهد والآثار لبلاد الشام". وسيصدر تباعاً إن شاء الله تعالى

- القرى والبلدات في بلاد الشام.

- رحلة إلى الفرات.

وربما أجد في جولة أخرى بين أوراقه المبعثرة كتباً جديدة أعدها للنشر وليس لي من قصد سوى تقدير جهود عالم مخلص في بحثه ودراساته.

لندن شباط /٢٠٠٨